سلسلة
شروح عقيدة الرسالة

# النكت المفيدة
# في
# شرح الخطبة والعقيدة

( للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني )
( ٣١٠هـ / ٩٢٢م - ٣٨٦هـ / ٩٩٦م )

تأليف
محمد بن سلامة الأنصاري التونسي
( ٧٤٦هـ / ١٣٥٦م )

دراسة وتحقيق
د. الميلودي بن جمعة — الأستاذ الحبيب بن طاهر

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

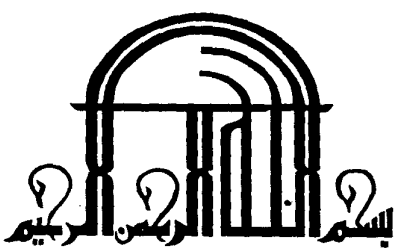


يطلب من مكتبة المعارف ص. ب 1761 /11 بيروت – لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

**وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم**

## تقديم

**وبعد**، فتمثّل العقيدة في الدين الإسلامي القاعدة الإيمانية الأساس التي تنبثق عنها المفاهيم الصحيحة حول وجود الكون ـ بكلّ مكوّناته ـ وحقيقته ومصيره، ومهمّة الإنسان فيه؛ وتنبثق عنها الأحكام والتكاليف لهذا الإنسان ذي المهمّة الفريدة المميّز بها، مهمّة الاستخلاف في الأرض.

لذلك اعتنى القرآن الكريم بتفصيل الحديث عن العقيدة الحقّة التي دعا النّاس إلى اعتناقها والاستهداء بهديها، وأفاض في الحديث عن أركانها وما يتعلّق بها، من الإيمان بالله تعالى وصفاته، وبالأنبياء ومكانتهم ونعوتهم ومهامّهم، وباليوم الآخر وأحواله، وسائر الأمور الغيبية.

ففصّل القرآن الكريم الحديث عن كلّ ذلك تفصيلاً؛ تأسيساً وبياناً في السور المكّية، وتذكيراً وإجمالاً في السور المدنية.

وقد قدر علماء الإسلام هذه العناية الربّانية بأمور العقيدة حقّ قدرها، وفهموا ـ من خلال ذلك ـ الواجب المناط بعهدتهم المتمثّل في بيانها للنّاس وتفسيرها، بتحويل آيات الكتاب الحكيم العقدية إلى قواعد ومقرّرات واستدلالات، على النحو الذي يبسّطها لهم وتفهمها عقولهم. وجعلوا في اعتبارهم وهم يقومون بهذا العمل جميع أصناف النّاس؛ من المؤمنين بحسب مستوياتهم وأعمارهم، ومن الكافرين بحسب مللهم ونحلهم.

ولأجل ذلك تنوّعت دراساتهم لعلم العقيدة وتنوّعت مؤلفاتهم فيه.

وساروا بالتأليف فيه، على المنهج الذي ابتكروه في سائر العلوم الدينية، واللغوية، والطبيعية، والعقلية، وانفردوا به عن سائر الأمم؛ الذي يقوم على تنويع التأليف بحسب أغراضهم منه، وبحسب الفئات الموجّه إليها. ويظهر هذا التنويع في اختلاف المادّة قلّة وكثرة، واختصاراً وتطويلاً؛ وفي اختلافها بين العمق في التقرير والتحليل والاستدلال، وبين الاقتصاد في ذلك.

ومن أهمّ ما قصده العلماء المسلمون، هو التوجّه لفئة عريضة من الناس، هي الناشئة وعامّة المسلمين، بالتآليف التي تناسبهم؛ لتعليمهم ما هو مطلوب منهم تعلّمه من أمور الدين الضرورية، ومن ذلك علم العقائد. فليس طبيعة العلم الشرعي ـ وخاصة الضروري منه ـ أن يظلّ حكراً على العلماء وحبيس مجالس النخبة من الناس، بل هو في نظر الإسلام ثقافة العموم والحدّ الأدنى من المعرفة المضمونة لكلّ مسلم، للخروج به من دائرة الأميّة الشرعية.

وما قام به العلماء من العناية بالناشئة وعامّة المسلمين وتخصيصهم بالتأليف يدلّ على مدى وعيهم بأمانتهم ودورهم في حماية عقيدة الأمة من محاولات التحريف والتشكيك التي ما فتئ أعداؤها يحاربونها فيها؛ ويدلّ كذلك على مدى وعيهم بطبيعة هذا الدين، وأنّ المحافظة عليه تقتضي توريثه للأجيال المتلاحقة بالتعليم والمداومة على التعليم، وبالاعتناء بأهمّ وسيلة في التعليم وهي التأليف؛ لأنّ التأليف يربط آخر هذه الأمّة بأوّلها، ويقرّب العلم للبعيد عن مجالس العلماء. وقد أفنى علماء المسلمين أعمارهم في تأليف ما يحقّقون به هذه المهمّة، حفاظاً على انتساب أجيال المسلمين لهذا الدين، وقياماً بواجب العهد الذي أخذه الله تعالى على العلماء، بأن يبيّنوا للناس دينهم ولا يكتموه، وأن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر.

وعقيدة الشيخ الإمام أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله تعالى ـ تتنزّل في هذا الإطار، أي في تقديم تأليف يتضمّن مقرّرات العقيدة الإسلامية، بأسلوب مختصر يساعد الناشئة، كما يساعد عامة الناس، على الإحاطة بما يجب عليهم معرفته من قواعد العقيدة الإسلامية التي تحدّد انتماءهم للإسلام، وتسلّحهم بما يحفظون عقائدهم من التزلزل

والتشكيك؛ ومن ثمّ تصحّح عباداتهم والتزاماتهم لأحكام الشريعة.

وكذلك ما كتب على هذه العقيدة المباركة من شروح، فإنّه يساعد الدارس لعقيدة الشيخ ابن أبي زيد ـ في مرحلة ثانية ـ على التوسّع فيها واستيضاح ما طوي فيها من معان، فتطمئن فؤاده لصحّة عقيدته، وترسّخ لديه براهين الانتصار لعقيدته في مواجهة التشكيك الطارئ.

ولذلك يعتبر ما تضمّنته هذه العقيدة مع شروحها مما هو ضروري معرفته من علم العقيدة على المسلم، إذا كانت به أهلية القراءة والكتابة وفهم مقاصد المتحدّثين.

وفي هذا العصر، يتأكّد على علماء المسلمين ووعّاظهم وخطباء منابرهم ودعاتهم، السير على مناهج سلفهم الصالح والاقتداء بهداهم؛ بأن لا يغفلوا موضوع العقيدة، وتوجيه الناس إليه، وتعليمهم قواعده وحججه وبراهينه؛ أمام الدعوات التي تنشط في ديارهم لنشر الإلحاد والتنصير والتشكيك في عقيدة الإسلام باسم النسبية في العقائد والأفكار؛ وأمام الإهمال ـ المقصود أو غير المقصود ـ الذي يجده هذا الركن الأعظم في الإسلام؛ لذلك فإنّ عليهم أن يتحمّلوا مسؤولية صيانة العقيدة وحماية الأمة في دينها، في زمن انفتحت فيه المجتمعات على بعضها، ولم يعد بالإمكان حماية المسلمين في عقائدهم إلّا بما يقدّم إليهم من عقائد مبرهنة، تحتل في نفوسهم درجة اليقين والقطع بها.

هذا من حيث الاهتمام بالموضوع جملة، وأمّا من حيث منهج العرض، ومنهج الاستدلال، وتنزيل قواعد الاعتقاد الإسلامي على ما طرأ في العصر الحاضر من مفاهيم تتعلّق بالعقائد، ومناقشة هذه المفاهيم على ضوء تلك القواعد، فلا شكّ أنّ الواجب يدعو علماء الإسلام أيضاً لأن يتناولوا موضوع العقيدة الإسلامية من هذه الجوانب، وأن يواصلوا الحوار الذي أرسى قواعده القرآن الكريم مع غير المسلمين، للحفاظ على عالمية العقيدة الإسلامية وإثبات ثقتها بمبادئها، وقدرتها على التحدّي؛ في مسيرة هداية البشرية إلى الدين الحق التي انطلقت على يدي رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.

وإذا كان الواجب هكذا مع غير المسلمين، فالأولى على العلماء تثبيت قيم التحاور والجدال بالحسنى، في الإطار المذهبي الإسلامي، دون إقصاء بالتفسيق والتبديع. وأن يكون التمسّك بالقناعات المذهبية قائماً على الحجج والبراهين، التي يشترك في إدراكها جميع العقلاء.

ولنا في علماء العقيدة الإسلامية خير مثال على تطبيق دعوة القرآن الكريم المسلمين لمحاورة بعضهم البعض، ولمحاورة غير المسلمين من شتّى الملل والنحل. فقد فتحوا صدورهم وكتبهم لتتبّع جميع الآراء والمعتقدات، تدويناً ومناقشة وإبطالاً، وتأسيساً للمعتقد الصحيح؛ تماماً كما فعل القرآن الكريم مع العقائد المنتشرة في عصر نزوله؛ فقد سجّلها، وناقش أصحابها، وبيّن بطلانها، وأقام المعتقد الصحيح، محتجاً على كلّ ذلك بالحجج والبراهين التي لا يجد العقل عنها انفكاكاً.

وإنّما اهتمّ القرآن بالمعتقدات المخالفة له لأنّه يعترف بوجودها، وإن كان يعتبرها باطلة؛ لأنّ بطلانها لا يلغيها ولا يمنع تأثيرها في حياة الناس؛ وقد اقتضت واقعية الإسلام أن يتعامل مع الواقع، ويسعى إلى تصحيحه وتغييره. وعلى هديه سار علماء العقيدة الإسلامية.

ولأجل كلّ ما تقدّم يأتي تحقيقنا لشرح الإمام محمّد بن سلامة الأنصاري التونسي لعقيدة الشيخ أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني؛ لاعتقادنا أنّ ما ذكرناه من دور العلماء في العصر الحاضر لا يمكن أن يبنى على فراغ، بل لا بدّ أن يتأسس على ما خلّفه علماؤنا الأبرار، ولاعتقادنا أنّ إحياء تراثهم وتفعيله ركون إلى مرجعية أثبتت القرون صلابتها. وإنّ أيّ نهضة للمسلمين في هذا العصر لا ترتكز على هذه المرجعية، سيصيبها الإعياء والتيه في مفارق الطرق، وستمنى في النهاية بالفشل.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

# التعريف بـ:

- الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (صاحب العقيدة).
- الشيخ محمّد بن سلامة الأنصاري (شارح العقيدة).

# عبد الله بن أبي زيد القيرواني[1]

## (٣١٠هـ/ ٩٢٢م ـ ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)

### نسبه وولادته:

عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمٰن النفزاوي[2] أو النفزي[3]، القيرواني؛ أبو محمد. و«النفزي» نسبة إلى «نفزة» قرية في الشمال الغربي من القطر التونسي[4]، و«النفزاوي» نسبة إلى «نفزاوة» من بلاد الجريد في الجنوب الغربي. فهو من صميم الشعب الإفريقي البربري[5]. وأجمع مؤرخوه أن مكان ولادته مدينة القيروان. وكانت ولادته على الأرجح سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م.

---

(١) ترجمته في: الأعلام: ٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، أعلام الفكر الإسلامي: ٤٤ ـ ٤٩، تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٢٨٦، تاريخ التراث العربي: ١/ ٣/ ١٦٦، تذكرة الحفاظ: ٣/ ٢١٢، تراجم المؤلفين التونسيين: ١/ ٤٤٣، ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٢، دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٨٠، الديباج: ١/ ٤٢٧ ـ ٤٣٠، شجرة النور: ٩٦، شذرات الذهب: ٣/ ١٣١، طبقات الفقهاء: ١٥٠، عنوان الأريب: ١/ ١٢٨، فهرست ابن خير: ٢٤٤، كشف الظنون: ٨٤١ ـ ٨٨٠، مرآة الجنان: ٢/ ٤٤١، معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩ ـ ١٢١، معجم المؤلفين: ٦/ ٧٣، النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٠٠، هدية العارفين: ١/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، الوفيات: ٢٢١.

(٢) «النفزاوي» هو ما ذكره الدباغ (معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩)، والشيخ محمد الفاضل بن عاشور (أعلام الفكر الإسلامي: ص٤٦)، والزركلي (الأعلام: ٤/ ٢٣٠)، وبروكلمان (تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٢٨٦).

(٣) «النفزي» هو ما ذكره عياض (ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥)، وابن فرحون (الديباج: ص١٣٦)، ومخلوف (شجرة النور: ص٩٦)، والقلشاني في شرحه.

(٤) ذهب محمد بن شنب إلى أنه من «نفزة» من أعمال الأندلس (دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٨٠)، وهو بعيد.

(٥) أعلام الفكر الإسلامي، لمحمد الفاضل بن عاشور: ص٤٦.

## الإطار السياسي والديني:

ولد ابن أبي زيد بعد أربعة عشر سنة من قيام الدولة العبيدية الشيعية سنة ٢٩٧هـ ـ ٩٠٩م، التي أطاحت بالدولة الأغلبية السنية، وحلت محلها في الهيمنة على بلدان الشمال الإفريقي. وما بين ولادة ابن أبي زيد سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م ووفاته سنة ٣٨٦هـ ـ ٩٩٦م، يكون قد عاصر خلفاء الدولة العبيديّة حتى سنة تغيير عاصمتهم ومركز حكمهم من المهدية إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٢م؛ ثم عاصر الأمراء الصنهاجيين من بني زيري الذين خلّفهم العبيديون على ملك إفريقية نيابة عنهم.

ولا شكّ أنّ الاختلاف الجوهري القائم ـ في مجال العقائد ـ بين الشيعة الإسماعيلية من جهة، وأهل السنة الذين يتزعمهم فقهاء المالكية والخوارج من جهة أخرى، كان سبباً كافياً لأن تتحول منطقة الشمال الأفريقي مسرحاً للصرّاعات الدامية. فكان الشيعة العبيدية في هذا الصراع يمثلون الطرف المهاجم الذي يسعى إلى بسط سيطرته ونشر معتقده وحمل الطرف المقابل على التحول عن مبادئه وعقائده، تارة بالقوة والإرهاب والقتل، وتارة بالمال والمناصب؛ وكان أهل السنة وكذلك الخوارج يمثلون الطرف المقاوم، وإن اختلفت مظاهر المقاومة بين هذين الفريقين.

## مذاهب ومعتقدات أخرى في عهد ابن أبي زيد القيرواني:

لم يكن المذهب العبيدي هو وحده الذي عاصره ابن أبي زيد، واطلع على معتقداته وآرائه، وشهد صراع أهل السنّة العلمي والقتالي معه؛ بل كانت الساحة الإفريقية في المجال العقائدي والفكري تتنازعها تيارات مختلفة، منذ عهد الأمراء الموالين للدولة الأموية إلى نهاية عهد الأغالبة الموالين للدولة العباسية. فقد كان للمذهبين الإرجائي والاعتزالي حضور بالقيروان، توفّر لهما بتشجيع الأمويين للمرجئة، والعباسيين من بعدهم ممثّلين في الأغالبة للمعتزلة. لكن وإن تمّ القضاء على الإرجاء كمذهب قائم في عهد الأغالبة[1]، وتمّ

---

(١) انظر أسباب القضاء على مذهب المرجئة من قبل العباسيين وممثليهم الأغالبة: الصراع المذهبي بإفريقية: ١٥٩.

انحسار الاعتزال بعد سقوط الدولة الأغلبية بسبب تحوّلهم وانتمائهم إلى المذهب العبيدي[1]؛ إلّا أنّ آراء المذهبين ظلّت حاضرة ومتناقلة، إمّا عن طريق بقاياهم، أو عن طريق علماء أهل السنة الممثلين بعلماء المذهب المالكي الذين كانوا يعرضون لآراء مخالفيهم في سياق الردّ عليهم ونقض معتقداتهم، بحيث تمكّن ابن أبي زيد من الاطلاع عليها.

ومع المذاهب العبيدي الشيعي، والإرجائي، والاعتزالي، فقد كان المذهب الخارجي، الصفري والأباضي، حاضراً أيضاً في إفريقية، وقد تمكّن أصحابه من إقامة دولة وبسط نفوذهم على مناطق شاسعة فيها بما في ذلك مدينة القيروان في بعض الفترات، مما جعل لآرائهم رواجاً وانتشاراً[2]، وقد قام بين الخوارج وأهل السنة تحالف عسكري لمحاربة العبيديين.

وإنّ اطلاع ابن أبي زيد القيرواني على مختلف عقائد هذه الفرق المخالفة لأهل السنة، سنجد له صداه في المقدّمة العقائدية للرسالة الفقهية التي ألّفها، على ما سنبيّنه عند دراستنا لهذه العقيدة.

## نشأة ابن أبي زيد وطلبه العلم:

في هذا الإطار السياسي المتمخض عن الصراع المذهبي بين الفرق الدينية وخاصة بين أهل السنة الذين يمثلهم المالكية الذين يمثلون غالبية مسلمي الشمال الإفريقي، وبين التيارات المتعددة التي واجهوها وعارضوا مبادئها ومعتقداتها، كالمعتزلة في عهد الدولة الأغلبية، والخوارج الصفرية والإباضية، والشيعة وخاصة الإسماعيلية؛ نشأ ابن أبي زيد القيرواني وتلقى تعليمه الديني على خوف من اضطهاد الدولة العبيدية المتربّصين بكل من ينشر من المالكية علوم أهل السنة، وبكلّ من يتلقّى هذه الدروس. وقد استطاع هذا الطالب أن يشقّ طريقه في طلب العلم، وأن يصل إلى الأخذ عن أبرز من

---

(١) انظر أسباب انتماء المعتزلة في القيروان للمذهب العبيدي: الصراع المذهبي بإفريقية: ١٠٦ ـ ١٠٩.

(٢) انظر: المدارس الكلامية بإفريقية: ٨١ ـ ٨٣؛ الصراع المذهبي بإفريقية: ١١٠ ـ ١١٧.

يمثل المذهب المالكي بالقيروان، رغم الحصار المضروب عليهم.

وأما العلماء الذين أخذ عنهم ابن أبي زيد القيرواني بالقيروان، فمنهم:

ـ أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح، المعروف بابن اللبّاد القيرواني. توفي سنة ٣٣٣هـ[١].

ـ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني. توفي سنة ٣٣٣هـ[٢].

ـ أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي. استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في قتال العبيديين[٣].

ـ أبو سليمان ربيع بن عطاء الله بن نوفل القطان. استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في جهاد العبيديين[٤].

ـ أبو عبد الله محمد بن مسرور العسال. توفي سنة ٣٤٦هـ[٥].

ـ أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق الإبياني. توفي سنة ٣٥٢هـ[٦].

ـ أبو عثمان سعدون بن أحمد الخولاني. توفي بالمنستير سنة ٣٢٤هـ.

ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي. توفي سنة ٣٥٦هـ[٧].

ـ أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الجروي المغربي الفاسي. توفي سنة ٣٥٧هـ[٨].

---

(١) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٨٦ ـ ٢٩٥؛ شجرة النور الزكية: ٨٤؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ١٩٩.

(٢) ترتيب المدارك: ٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٦؛ شجرة النور: ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٩٧ ـ ٣١٠؛ شجرة النور: ٨٣؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ٣٨١.

(٤) ترتيب المدارك: ٥/ ٣١٠ ـ ٣٢١؛ شجرة النور: ٨٣؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ٩٢.

(٥) شجرة النور: ٨٤ ـ ٨٥.

(٦) ترتيب المدارك: ٦/ ١٠ ـ ١٢؛ شجرة النور: ٨٥؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ١/ ٤٤.

(٧) ترتيب المدارك: ٦/ ٥٤ ـ ٧٦؛ شجرة النور: ٩٤.

(٨) ترتيب المدارك: ٤/ ٨١ ـ ٨٤؛ شجرة النور: ١٠٣.

ـ أبو محمد عبد الله الأصيلي الأندلسي. توفي سنة ٣٩٢هـ[١]. وغيرهم.

## شيوخه في رحلته للحجّ:

خرج ابن أبي زيد حاجاً، وفي رحلته التقى جمعاً من العلماء، فسمع من أبي سعيد بن الأعرابي، وإبراهيم بن محمد بن المنذر، وأبي علي بن أبي هلال، وأحمد بن إبراهيم بن حماد القاضي، والحسن بن بدر، ومحمد بن الفتح، والحسن بن نصر السوسي، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وحبيب بن أبي حبيب الجزري. وغيرهم[٢].

## إجازاته وأسانيده:

لم يكتف ابن أبي زيد القيرواني بما تلقاه عن العلماء مباشرة؛ بل كان حريصاً على أن يحصل على الإجازات والأسانيد العلمية في الأحاديث والروايات والآثار وأقوال الفقهاء، وذلك من طرف مشاهير علماء عصره الذين يمثلون حلقات السند العلمي في وقته، في مراكز العلم الأخرى، ولم يمكنه السفر إليهم للأخذ عنهم؛ فكان أن وجّه إلى أئمة المذهب ببغداد ومصر يطلب إجازته بمروياتهم؛ فأجازه بكر بن العلاء القشيري البصري، وأبي بكر الأبهري البغدادي إمام المالكية ببغداد، وأبي بكر بن الجهم المعروف بابن الوراق المروزي البغدادي، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي المصري، ذكر ذلك هو في مقدمة كتابه «النوادر والزيادات»[٣].

وقد أفاده حرصه على الحصول على الأسانيد العلمية أن امتاز بعلوّ أسانيده، فهو يروي عن سحنون بواسطة، وعن ابن القاسم بواسطتين، وعن مالك بثلاث[٤].

## منزلته العلمية:

تجدر الإشارة هنا إلى أن إسناد العلماء الإجازات لمن يطلبها تعتبر تزكية

---

(١) انظر: ترتيب المدارك: ٧/١٣٦.
(٢) انظر: ترتيب المدارك: ٦/٢١٧؛ شجرة النور: ٩٦.
(٣) مخطوط رقم ٥٧٢٨، ورقة ٢.
(٤) الفواكه الدواني: ١/٩.

له وثقة منهم بكفاءته العلمية وأهليته لما أجازوه فيه؛ وهذا بناء على سبق معرفتهم بمكانته العلمية، إمّا بمعرفتهم الشخصية له، أو باشتهاره ووصول خبره إليهم. وإنّ إسناد هؤلاء الأئمة المشهورين إجازاتهم لابن أبي زيد القيرواني لخير دليل على شهادتهم له بالنبوغ والعالمية، وعلى شهرته وبعد صيته في الآفاق.

وبالفعل فقد بلغ ابن أبي زيد القيرواني بعد تحصيله العلم منزلة رفيعة بين علماء عصره، وشهد له بذلك شيوخه قبل أن يشهد له تلاميذه والمؤرخون له.

فقد بلغ من ثقة علماء عصره بعلمه ومعرفتهم بمنزلته، أن مال بعض شيوخه إلى تقليده في آرائه، قال حافظ المغرب أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: ما قلّدت أبا محمد بن أبي زيد، حتى رأيت السبائي يقلّده[1]، والسبائي هذا أحد شيوخه. وبعد أن كان هو الطالب لإجازة العلماء ببغداد، أصبح هو المطلوب من هؤلاء العلماء أن يجيزهم بكتبه، لما سمعوا عنها وعرفوا قيمتها، فقد أرسل أبو عبد الله محمد بن مجاهد رسالة إلى الشيخ ابن أبي زيد يشيد له فيها بكتابيه «المختصر» و«النوادر» ويشكره عليهما، ويطلب منه أن يتفضّل بإنفاذهما بعد عرضهما بحضرته، وإجازتهما له ولغيره من علماء بغداد، فجاوبه الشيخ بأنّه سوف يوجّه إليه وللشيخ الأبهري إمام المالكية ببغداد بالكتابين المذكورين[2].

كما أظهر علماء بغداد تقديرهم لمكانة الشيخ العلمية واهتمامهم بكتبه وبما بذله فيها من جهد لخدمة المذهب المالكي والعقيدة السنية، وذلك بما قام به الأبهري من تتبع ألفاظ «الرسالة» ومعانيها، فرفعها إلى النبي ﷺ أو إلى أصحابه ﷺ، وسمّى هذا العمل بـ«مسلك الجلالة في مسند الرسالة»[3]؛ وبما قام به القاضي عبد الوهاب البغدادي من وضع شرح عليها وعلى «مختصر

---

(١) ترتيب المدارك: ٦/٢١٦.
(٢) ترتيب المدارك: ٦/١٩٧.
(٣) انظر: «الرسالة الفقهية مع غرر المقالة»، محمد أبو الجفان: ٤٣.

المدونة»، وسمّى شرح المختصر «الممهّد في شرح مختصر أبي محمّد»[1].

وقد أفاض نظراؤه المعاصرون له من العلماء، وكذلك طلبته، في ذكر قيمته العلمية؛ قال عنه أبو الحسن القابسي: «إمام مؤيد موثوق به في درايته وروايته»[2]، وذكره أبو بكر بن الطيب الباقلاني في كتابه، فعظّم قدره وأضفى عليه لقب «الشيخ»[3]. ولخص القاضي عياض شهادة العلماء فيه بقوله: «كان أبو محمد إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله. وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، كتبه تشهد له بذلك، فصيح القلم، . . . وحازَ رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار. وهو الذي لخّص المذهب وضمّ نشره وذبّ عنه»[4]. وللجهد الكبير الذي بذله في خدمة المذهب المالكي، والأثر الذي أحدثه فيه أطلق عليه أهل المذهب تسميتان: «مالك الصغير»[5] و«قطب المذهب»[6].

ويلخص هذه المنزلة وصف محمد مخلوف له بـ«الفقيه، النظار، المتكلّم، الحافظ، الحجّة، الأديب»[7].

## الأديب والشاعر:

أضاف ابن أبي زيد القيرواني إلى نبوغ في العلوم الشرعية براعته في مجال الأدب، فقد كان فصيح اللسان له قدرة على البيان، في المجالين الشفهي والكتابي. كما كان ينظم الشعر، وقد وصفه مترجموه بأنّه شاعر مجيد متفنّن[8]، وأنّه ذا عذوبة ألفاظ، وملاحة إيراد، وجزالة معان[9]. ومن شعره في رثاء شيخه أبي الفضل العباس الممسي، وكان قد استشهد في معركة المهدية ضدّ العبيديين:

---

(١) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٢٢.
(٢) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٣) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٤) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٦٠.
(٦) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.
(٧) شجرة النور الزكية: ٩٦.
(٨) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٢/ ٤٤٣.
(٩) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.

يا ناصراً للدين قمت مسارعاً ... وبذلت نفسك مخلصاً ومريدا
وذببت عن دين الإله مجاهداً ... وابتعت بيعاً رابحاً محمودا
عهدي به بين الأسنة لم يكن ... لله عند لقا العدوّ كمودا
كانت حياتك طاعة وعبادة ... فسعدت في المحيا ومت سعيدا
يا قرّة للناظرين وعصمة ... للمسلمين وعدّة وعديدا
يا فاتق الرتق الخفي بعلمه ... ومبيناً للمشكلات مفيدا
جمعت كلّ فضيلة ونقيبة ... وحويت علماً طارفاً وتليدا
وبرعت بين أصوله وفروعه ... فقهرت ما قد كان منه عتيدا
يا أيّها المحسود في أخلاقه ... وفعاله لا لمت فيك حسودا
أفديك من ورع عليم فاضل ... لك في الورى ما إن رأيت عنيدا
يبكي إذا غسق الدجى بمدامع ... قد خددت في خدّه أخدودا
إن فاتني نظر إليك فلم يفت ... ذكر يحلّ من السلو عقودا
ومدامع تشفي وتطفي بالحشا ... ناراً إذا طفيت تزيد وقودا[1]

وقال في رثاء شيخه أبي بكر بن اللباد، وكان قد امتحن بالسجن، ثم بالمنع من الخروج من بيته، ومن التدريس والاجتماع بأهل العلم والطلبة:

يا من لمستعذب في ليله حزناً ... مستوطن من بقايا دائه وطنا
يا عين وابكي لمن في فقده فقدت ... جوامع العلم والخيرات إذ دفنا
لهفي على ميت ماتت به سبل ... الخيرات قد كان أحيى الدين والسننا
نفسي تقيك أبا بكر ولو قبلت ... فدتك من كل مكروه إليك دنا
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها ... فنحن بعدك نلقى الضيم والفتنا
ونحن بعد أيتام بغير أب ... إذ غيب الترب عنا وجهك الحسنا

**موقفه من العبيديين:**

كانت مواقف علماء القيروان من الدعوة العبيدية قد اتخذت أشكالاً

---

(١) ترتيب المدارك: ٥/٣٠٨.

أربعة: المقاطعة وعدم المخالطة لرجال الدولة الجديدة ولكل من يتصل بهم؛ وتكفيرهم والمجاهرة بمعاداتهم؛ والمناظرة والمواجهة العلمية؛ وإعلان الجهاد ووجوب مقاتلتهم.

ولم يشذّ موقف ابن أبي زيد من الدعوة العبيدية الشيعية، عن موقف مشائخه وعلماء بلده، في المسارت التي اتخذوها لمواجهتها؛ والأخبار المنقولة عنه تدلّنا أنّه كان ضالعاً فيها؛ فقد جعل من داره مركزاً لاجتماع علماء المالكية لتدارس أمر العبيديين وطرق مجابهتهم، واختيار المناظرين لهم من بينهم ممّن يقدر على إفحامهم، من ذلك ما روي أنّ والي العبيديين على القيروان شدّد في طلب أهل العلم ليدخلهم في الدعوة، فطلب أبا سعيد بن أخي هشام، وأبا محمد بن التبان، وأبا القاسم بن شبلون، وأبا محمد بن أبي زيد، وأبا الحسن القابسي، فاجتمعوا بدار أبي محمد بن أبي زيد، واتفقوا على السير إليه، فقال لهم ابن التبان: أنا أمضي إليه وأكفيكم مؤونة الاجتماع به، ويكون كلّ واحد في داره، وأبيع روحي من الله دونكم؛ لأنكم إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن. ولمّا دخل على الوالي قال له: جئتك من قوم إيمانهم مثل الجبال، أقلّهم يقيناً أنا[1].

وقد شارك في جهاد العبيديين في الحملة التي قادها ضدّهم شيوخه فقهاء القيروان بالمهدية سنة ٣٣٣هـ؛ وكان عمره في هذه الواقعة ثلاثة وعشرين سنة. ولا شكّ فإنّ مثل نفس ابن أبي زيد الطامحة للعلى بخدمة دينها، يكون صاحبها قد وظّف ماله أيضاً في تجهيز الجيش؛ إذا احتملنا أنّه بدأ حياته موسراً. وكما قدّم نفسه وماله في الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد وظّف كذلك لسانه وقلمه لرثاء شيوخه المستشهدين والإشادة بجهادهم في ميادين العلم والقتال[2].

---

(١) معالم الإيمان: ٣/ ٩١، ترتيب المدارك: ٦/ ٢٥٢.

(٢) انظر رثاءه لشيخه أبي الفضل الممسي: (ترتيب المدارك: ٥/ ٣٠٨)، وانظر رثاءه لشيخه ابن اللباد: (ترتيب المدارك: ٥/ ٢٩٤).

**جهوده العلمية:**

تظهر جهود ابن أبي زيد العلمية من خلال ما تخرّج على يديه من العلماء المبرزين، وما صدر عنه من التآليف.

وبنظرة تقويمية لجهوده العلمية، من خلال مؤلفاته الآتي ذكرها، وإشادات العلماء بها، يبرز ابن أبي زيد الشخصية العلمية المفصلية في تاريخ المذهب المالكي؛ سمحت لمن جاء بعد طبقته من علماء المذهب أن يرتكزوا عليها في دراساتهم الفقهية. فقد انصبّت جهوده على مسارات:

**الأول**: جمع واستقصاء ما روي عن الإمام مالك وعن تلاميذه وتلاميذه من آراء وأقوال. ولأجل ذلك سعى إلى أن يربط صلاته مع مراكز المذهب المالكي ـ الأندلس ومصر وبغداد ـ ليستفيد من علمائها ما ليس عند القيروانيين من المادة الفقهية المروية عن إمام المذهب، وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه. فكان أن تحقق له ذلك بما جاءته من إجازات أقطاب المذهب، وتجمعت لديه ما لم يتجمّع لغيره من علماء المالكية في عصره وقبل عصره، ممّا كان موزّعاً بين الأقطار التي انتشر فيها أصحاب الإمام مالك.

وقد مكّنه هذا التجميع من إقامة منهج هامّ يقوم على ما يلي:

* تمييز أقوال إمام المذهب وحصر الروايات عنه؛ وضبط مواطن الاتفاق والاختلاف بينه وبين أصحابه؛ وتحديد ما انفرد به أصحابه وتلاميذهم ممّا لم يكن له فيه قول.

* دراسة الخلاف فيما فيه خلاف بين الروايات والأقوال، وذلك بتحقيق مناط الخلاف حيث كانت الصورة واحدة واختلفت فيها الأنظار؛ أو بتحقيق الصور المناسبة لها لبيان أوجه الفرق بينها، حيث كان الخلاف في الصور.

* وضع كلّ حكم فقهي، برواياته المتعدّدة وأقواله المختلفة، ضمن معايير الأركان والشروط التي تتحقق بها ماهية كلّ موضوع من مواضيع الأحكام الفقهية[1].

---

(١) انظر: أعلام الفكر الإسلامي لمحمد الفاضل بن عاشور: ص٤٧.

ويظهر هذا الجهد الذي قام به ابن أبي زيد في كتابه الموسوعي «النوادر والزيادات» الذي سيأتي الحديث عنه.

وغني عن البيان ما وفّره هذا الكتاب ـ بالمنهج الذي أقامه عليه مؤلفه ـ لعلماء المذهب في جميع مراكزه، في عهد ابن أبي زيد وبعده، من المادة الفقهية التي أغنتهم عن السفر لتلقّي مدونات المذهب ومصنفاته المتفرّقة بين هذه المراكز، إذ كان كل مركز قبل ابن أبي زيد يختص بروايات وأقوال، قد تختلف أو تتفق مع المراكز الأخرى. كما وفّر لهم فرصة المقارنة بين الاتفاقات بإقامة القاعدة النظرية الصلبة التي ينبني عليها المذهب، لحفظ وحدته؛ والمقارنة بين الاختلافات بإقامة قواعد الترجيح بينها من الناحية النظرية العلمية أو الخصوصية العرفية.

ولعلّه من أجل هذا العمل الضخم الذي أنجزه ابن أبي زيد للمذهب المالكي، عدّ هو وطبقته آخر المتقدمين وأوّل المتأخرين[1]، فكان تاريخ هذه الطبقة فاصلاً بين التاريخين للفقه، كما كان جهد ابن أبي زيد وما قدّمه للمذهب فاصلاً بين مرحلتين، نقل الدراسات الفقهية داخل المذهب إلى مرحلة جديدة.

**الثاني**: تلخيص المذهب وتبسيطه، بتقديم مادّة فقهية مركّزة، مقتصراً على رؤوس المسائل وأوائلها، دون التعرّض للتفريعات، ولا للخلافات داخل المذهب، حيث سلك مسلك الترجيح والاختيار بينها، مع سهولة العبارة وسلاسة المعاني. ويتمثّل هذا في كتاب «الرسالة». وهدفه منها تمكين الأطفال والمبتدئين وعامّة الناس من كتاب ميسّر، يكون عمدتهم في معرفة أصول العقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وآدابها. ولكنّه أصبح فيما بعد عمدة العلماء والمتفقهين في مراجعة المسائل والدراسات الفقهية في المذهب المالكي، في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلامية بلا استثناء. فابتدأ رواجها من عهد مؤلفها، واستمرّ تعاقب الشروح عليها من عصره، حيث كان أوّل من

---

(١) الفكر السامي: ٢/ ١١٥.

اهتم بها الإمام الأبهري بإسنادها وإرجاع ألفاظها إلى السنّة النبوية وآثار الصحابة؛ ثم كان أوّل شارح لها القاضي عبد الوهاب البغدادي، واستمرّت العناية بها من قبل العلماء بالشرح والبيان والتعليق إلى عصرنا الحاضر.

والحق فإنّ إنجاز مثل هذا المختصر، الذي لاقى الإعجاب والعناية من أقطاب المذهب في عصر مؤلفه، شكلاً ومضموناً، لا يقدر عليه إلا من غاص في أعماق المذهب، وأحاط بجميع أصوله وفروعه، وعرف كلياته وجزئياته، وفهم مداركه واستدلالاته، وكان قادراً على التصرّف في مسائله وتنزيلها على صورها.

ومن هنا تظهر عبقرية ابن أبي زيد في الدراسات الفقهية، بظهور قدرته على الانتقال من الدراسات المطوّلة التي تدل على موسوعية صاحبها وحفظه؛ إلى الدراسات المختصرة التي تدل على قدرة صاحبها على التمييز بين الأصول والفروع، وترتيب المسائل بحسب قوّتها؛ وهو أمر لا يحصل لصاحبه إلّا بتوفيق من الله تعالى.

وقد شهد له علماء المذهب بدوره في حماية المذهب المالكي وحفظه من التبعثر وتشتت الأقوال، التي تؤول عادة بأي مذهب، هذه صورته في تعدد الأقوال والآراء، إلى الانقسام وتولد المذاهب عنه؛ لذلك عدّوه ضمن علماء ستة كان لهم فضل كبير على المذهب وتماسكه وقوة حجته، فقالوا: لولا الشيخان، والمحمدان، والقاضيان، لذهب المذهب؛ فالشيخان: أبو محمد بن أبي زيد وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، والقاضيان: أبو الحسن بن القصار وأبو محمد عبد الوهاب البغدادي[1].

**الثالث**: الاحتجاج لآراء مذهبه العقدي السنّي، والفقهي المالكي. وقد اشتهر بردوده على أهل الأهواء والبدع، من منتسبي فرق المعتزلة والخوارج والشيعة والصوفية المنحرفين. كما اشتهر بعمق مناقشاته لهم، وإقامة الحجة

(١) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.